# الجغرافيا و مثلث برمودا

أ.د. مضر خليل عمر

عند مقارنة الوضع العلمي – الاجتماعي للجغرافيا والجغرافيين في بلدنا مع ما يقابله وضع اقرانهم في دول العالم المتقدم يعصرني الالم وتخنقني العبرة ، واحاول ليس المقارنة فقط ، بل تحري الاسباب وراء ذلك ، كوني قد درست في انكلترا لنيل شهادتي الماجستير والدكتوراه ، ولدي اطلاع بسيط على مناهج الجغرافيا في بريطانيا والولايات المتحدة واستراليا . وقد قمت بالتدريس في اكثر من جامعة عراقية (البصره ، بغداد ، تكريت ، كويا و ديالى) وقد وصلت الى قناعة ان علة المستوى التعليمي (عامة والجغرافيا خاصة) في العراق مركزها ومصدرها الرئيس والاساسي هو النظام التعليمي ، وبوجه الخصوص مناهج الدراسة و طرائق التدريس .

الدراسة في دول العالم المتقدم تعتمد مبدأ التعلم (الذاتي) جنبا الى جنب مع التعليم ، (ما يقوم به المعلم) ينحصر في توجيه التلميذ \ الطالب الى ما يجب ان يتعرف عليه ذاتيا (قراءة وميدانيا) من وعن البيئة الجغرافية التي يعيش فيها اولا لينطلق منها الى معرفة العالم الاخر وليستوعب ما يقرأه . يعلموه كيف يفكر ، كيف يطرح اسئلة جغرافية ، كيف يجيب عن الاسئلة الجغرافية ، كيف يجمع البيانات مكانيا ، كيف يحللها و يستنتج منها . يعلموه الانتباه الى الظواهر و المشاكل الاجتماعية و الطبيعية و البيئية ، والعلاقة بينها ، وكيفية معالجتها . وقد صيغت ضوابطا ومعاييرا لمستوى تعليم الجغرافيا (وغيرها من العلوم الاخرى) من صفوف رياض الاطفال والدراسة الاساسية ثم الثانوية كي يتأهل الطالب للدراسة الجامعية . ففي عام 1994 صدر تقرير بعنوان ((الجغرافيا والحياة اليومية)) في الولايات المتحدة الامريكية يضم (18) معيارا لتعليم الجغرافيا . وقد ركزت مناهج الجغرافيا في العديد من دول العالم على ضرورة تعلم التلاميذ الجغرافيا ومفاهيمها الاساسية من خلال :

- تطوير معرفة الاماكن و مواقعها و استيعابها ،
- تطوير معرفة البيئات الطبيعية و البشرية واستيعاب توزيعها المكاني،
- تطوير استيعاب العمليات المؤثرة على البيئات ،
- تطوير استيعاب العلاقة بين المجاميع البشرية من جهة ، وبينها و البيئات على سطح الارض من جهة اخرى وتنظيمها المكاني ،
- تطوير استيعاب مختلف المجتمعات و الحضارات ،
- معرفة سلسلة من التقنيات وتطوير الخبرة فيها لممارسة الدراسة و العمل الميداني و البحثي و رسم الخرائط و قرائتها و معالجة البيانات لتساعد في فهم البيئة ،

- تطوير الاحساس بالبيئة واستيعابها ،
- تطوير استيعاب العلاقة بين القرارات التي يتخذها الافراد و مواقعهم المكانية والاشتقاقية ( و القيم التي يعتنقوها عن البيئة ) ، و
- تطوير استيعاب التباين المكاني للفرص المتوفرة امام الانسان للعيش و العمل .

بعد ان يستوعب الطالب الجغرافيا ويدرك مضامينها وابعادها واهميتها ، وتعرف على الوظائف التي تتطلب معرفة جغرافية ، عندئذ ، حينها يقدم للتخصص بها فهو يعرف بالضبط ما يريد ليتاهل به للوظيفة وا\او الوظائف القريبة من تخصصه .

في جامعات العالم المتقدم يعتمد نظام المقررات ، حيث يختار الطالب ما يريد دراسته من مواد ، والنظام التعليمي يتيح له اكمال الدراسة بثلاث سنوات ، وقد تمتد حتى سبع سنوات حسب اختيار الطالب و قدرته المادية والعلمية . وتتوزع المواد الدراسية بين اجباري واختياري (قسم ، كلية ، جامعه) . وبعد التخصص العلمي (جغرافيا مثلا) ، بامكانه الاشتراك في كورسات مهنية مكثفة (علوم تربوية مثلا) ليتنافس في الحصول على المهنة المطلوبة . فالتخصص العلمي غير التخصص المهني ، ولكنه جوهري واساسي لتحديد طبيعة المهنة لاحقا . ويشكل بحث التخرج وثيقة ضرورية عند التعيين ، خاصة عندما يكون لبحث التخرج علاقة بالمهنة المطلوبة . فما يتعلمه الطالب في مرحلة دراسية ما له علاقة متينة بما تعلمه في المرحلة السابقة ، وبما يؤهله للمرحلة اللاحقة . فمناهج التعليم (عموما والجغرافية منها) تشكل سلسلة متصلة ومتكاملة بمنظور علمي وافق استراتيجي . لهذا السبب لا تسقط الجغرافيا كعلم عندهم في مستنقع مثلث برمودا . بل التسلسل المنطقي و العلاقة الجدلية بين مفردات المنهج تؤهل الطالب ، والاختصاص ، للارتقاء العلمي مع الحفاظ على التلاحم الفكري للتخصص ، والمنافسه في الساحة العلمية والمهنية . فالجذور متينة و عميقة في الفكر الجغرافي و الممارسة العلمية الجغرافية الطويلة الاجل ، التي تتراكم بها ومن خلالها المعرفة و الخبرة وتاتي باكلها عند طلب وعند المنافسه في الميدان .

لعل هذا ما يفسر الازدهار العلمي عندهم . فالجغرافيا في الجامعه ، على سبيل المثال لا الحصر ، تمتد لتشكل حيزا (موقعا) اداريا – علميا على مستوى : كلية ، او مدرسة ، او قسم علمي . وحتى على مستوى القسم العلمي الذي يتمتع بشخصيته الاكاديمية ويتبع مدرسة فكرية معينة مستقلة عن الاقسام الاخرى في الجامعه . وعندما يقدم الطالب للدراسة في الجامعه فانه يختار عن دراية مسبقة بطبيعة القسم و تخصصاته الفرعية و منهجه الدراسي و المدرسة الفكرية التي ينتمي لها . وحتى استمارة التقديم للقبول في الدراسة الجامعيه تضم فقرات يحدد الطالب فيها مبدأيا التخصص الدقيق الذي يريد ان يتأهل به علميا .

بعبارة ادق ، مهد المنهج العلمي المتكامل و طرائق التدريس القويمة سبل التعلم الفعال و رسم ملامح استراتيج ناجح للتقدم العلمي والمهني ، ليس للجغرافيا وحدها ، بل لجميع العلوم والتخصصات الفرعية الدقيقة . فالجذر المشترك عميق و واسع الامتداد ، والفروع رصينة بافاق واعدة . هنيئا لهم تقدمهم العلمي ، وتفوقهم الحضاري وانشغالهم جديا ببناء بلدانهم ورفع شأنها بين الشعوب والدول .

في نهاية عقد السبعينات الغي نظام المقررات في جامعة البصره وتحول النظام التعليمي الى السنوي . مؤلم جدا انه في السنة نفسها اقر نظام المقررات للدراسة في ثانويات الكويت و بلدان الخليج العربي . وقد كان الالغاء لاسباب تافهة لا علاقة لها بالرصانة العلمية . وكلما تجري محاولة لاصلاح التعليم العالي وانتقاله ولو الى مستوى نظام فصلي تخصصي ، كانت الاصوات (الخشنة والناعمة على حد سواء) ترتفع لتحول دون التغيير . و وصل الامر الى ان تكون الاقسام العلمية ، اقرب ان لم تكن ادنى ، من مستوى التعليم الثانوي ، فقد سحبت صلاحيات رؤساء الاقسام واصبح عميد الكلية (ذا المنصب الاداري) هو صاحب الكلمة وليس رئيس مجلس علمي . والامر ينطبق على العمداء و كلمة (نعم سيدي) هي وحدها المسموح بها . هذا في

خصوص الشخصية العلمية للقسم العلمي ، فالاقسام العلمية اصبحت بمنهج واحد و زي موحد و نشاطات مكررة الهدف ، اصبحت فاقدة للمضمون العلمي الحقيقي . واضحت المؤتمرات العلمية شكلية – اعلامية – تطبيل باسم العلم وتسخير رجاله للمصالح السياسية الصرفه . واستمر الامر هكذا بعد 2003 ، وزاد الطين بله تفاقم عدد حملة الشهادات الجامعية العليا من قبل اشخاص لا يمتون للعلم بصلة .

وفي الوقت نفسه كانت طرائق التدريس متخلفة جدا (وما زالت) ، وكان التنافس والصراع على (لقمة العيش) على اشده ، ((المحاضرات والاشراف على الدراسات العليا و مناقشتها – و مبدأ حك ظهري حتى احك ظهرك معمول به سرا وعلنا)) . والغي الكتاب المنهجي وحلت الملازم محله ، والتي تقلصت من (16) صفحة الى( 3-4 ) اوراق لا اكثر . ليس على مستوى الدراسة الجامعية الاولية فقط ، بل العليا ايضا . نتيجة ذلك في المنظور : استنساخ عناوين الرسائل والاطاريح وتكرارها ، المناقشات الشكلية و منح درجة الامتياز و الجيد جدا بدون حق وانصاف .

لقد تعود طلبتنا ، مع شديد الاسف ، وتكلسوا على طريقة التلقين (من الابتدائية حتى اعلى المستويات الجامعية) والحفظ الببغاوي للمعلومات بقصد النجاح . فلم يسمح لهم باستخدام الدماغ للتفكير العلمي المنهجي ، ولا في معالجة المشاكل وتحليل الظواهر ، و لا الربط بين ما هو طبيعي مع ما هو بشري ، و فقدوا حاسة الاتجاه بين السبب والنتيجة . والادهى من ذلك ، ان (معلمي) طرائق التدريس قد اعتمدوا النظريات التربوية وكأنها قوالب (مقدسة) تصلح للجميع بغض النظر عن طبيعة الموضوع قيد الدرس . فقد كلف من كان اخر معرفة له بالجغرافيا كمادة دراسية في الصف الثالث متوسط ليقوم بتدريس مادة طرائق تدريس الجغرافيا .

وبالتاكيد فان الزبد يطفو على السطح ليعلن عن خفايا ما موجود في القاع . نتيجة كل ما ذكر انفا ، وما بقي حبيس الصدر ، ، النتيجة المؤلمة حسب رأيي هي :-

- ضعف الخلفية العلمية لمن يروم الدراسة في بلدان العالم المتقدم ، في الجامعات الرصينة ، لذا اما ان يفشل في الدراسة ، او ان يختار موضوعات متخلفة نسبيا عن اقرانه في الجامعات نفسها .
- البديل الاخر امام طلبتنا ، بوضعهم الحالي ، الجامعات التجارية التي تمنح الشهادات لكل من هب و دب ، وبالتالي تغرق الجامعات العراقية بحملة شهادات لا تخفي ضئالة الحجم العلمي لحاملها .
- نتيجة ضعف الاساس العلمي – الفكري الاصيل (الجغرافيا على سبيل المثال لا الحصر) عند حملة الشهادة الجامعية (وبسبب ضعف المنهج العلمي ، وطرائق التدريس المتخلفة والفاشلة ) :-

(1) تشوش واضطراب طلبة الدراسات العليا في اختيار التخصص العلمي الدقيق ، الذي يفترض انه سيحدد شخصيتهم العلمية والمهنية ، فغالبا ما يتنقلون ما بين الطبيعي والبشري . فقد يكتب احدهم في الماجستير في جغرافية الزراعة ليكتب في الدكتوراه في تخصص جغرافية المدن ، على سبيل المثال لا الحصر . ويزداد الامر وضوحا ليس عند المقابلة للقبول فقط ، بل عند تحديد الاختصاص الدقيق واختيار الموضوع والمشرف .

(2) وتبرز هشاشة الفكر الجغرافي عند اختيار موضوعات تتداخل بها التخصصات العلمية (والجغرافيا علم حدودي على تماس مع معظم ان لم يكن جميع العلوم) . هنا ينجذب الطالب لا ارديا الى رصانة العلم الاخر و وضوح فلسفته و تقنياته ، وبهذا تتقطع الجذور الجغرافية عنده . ادى هذا الى ظهور تخصصات (جغرافية) جديدة تنكر و تخجل (في بعض الاحيان) ان تنسب للجغرافيا . وهذا هو (الضلع) الثاني من مثلث برمودا .

الجغرافيا علم متعدد ومتداخل التخصصات ، والجغرافي يفترض ان يؤهل علميا لهذا من خلال المواد الدراسية المشتركة . ان تيبس المناهج الدراسية وعدم مرونتها ، و الخوف من

كشف العورات المستورة ، وطمعا في المردود المادي (تدريس واشرف) لذا ، فقد نظر بحذر شديد للكورسات المتداخلة التخصصات .

(3) لكل علم تقنياته وادواته التي يعتمدها في الدراسة والتحليل ، و الجغرافيا علم مكاني ، فتقنيات العلوم المكانية الاخرى متيسرة له ، ويفترض ان يتدرب طلبة الجغرافيا عليها جيدا ، وعلى تقنيات العلوم الاخرى التي تمس الاختصاص الدقيق . وتطبيق التقنيات تعزز وتعمق التخصص وتدفع به الى الامام وترفع من شأنه بين العلوم الاخرى . (او هكذا يفترض) وفي الاونة الاخيرة طفرت التقنيات المكانية وبرزت لتشكل ميدانا مشتركا بين العلوم و في المجال المهني . فبدلا من ان يفتخر الجغرافي بانه يعتمد اسس هذه التقنيات منذ ردحا من الزمن اصبح لقب التقنية يطرز العناوين الجغرافية ليخفي قيمتها واهمية نتائجها الموضوعية . بعبارة ادق ، حلت التقنية موقع الصدارة لتخفي خلفها الاصل العلمي . وهذا هو الضلع الثالث لمثلث برمودا .

(4) نتيجة تفشي الترقيات (اللاعلمية) وهيمنة حملة الشهادات الورقية على الجامعات و ادارتها ، و انتشار مكاتب كتابة البحوث والرسائل الجامعية ، التي استكملت بالذكاء الاصطناعي ، فان المستوى العلمي الحقيقي في مهب الريح . ان اساءة استخدام التقنيات العصرية هو اخطر بكثير من اية قنبلة ذرية تلقى على اي مكان في العالم .

ان الجغرافيا في العراق ، على وجه الخصوص ، تحتضر ، فهل من منقذ لها ؟ ولا يكون الانقاذ الا من خلال معالجة جذرية وحقيقية للاسباب الاساسية (قاعدة المثلث – المناهج وطرائق التدريس) . فالضلعين الاخرين هما من نتاج الضلع الثالث – الاساس ، وامتدادا له ، وبدونه لا يوجدان نهائيا .